

الصراع الديني على شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام «بواعثه - أبعاده - آثاره»

د. بكر زكي عوض
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة

التعريف بالبحث

الجزيرة العربية مهبط الوحي عبر التاريخ، منها خرج أنبياء وإليها هاجر أنبياء ومنها أرسلت رسل لهداية البشرية، كما تميزت بموقعها الجغرافي لإطلالها على المياه من ثلاثة جوانب ولتضمنها مواقع استراتيجية من ناحية ثانية، مما جعل الأبصار تتطلع إليها عبر التاريخ وإن تفاوتت البواعث فهل استطاعت تحقيق ما تريد؟ هذا ما عالجته البحث في الفترة الزمنية من منتصف القرن الرابع الميلادي حتى منتصف القرن السابع الميلادي تقريبا.

والله من وراء القصد.

مقدمة البحث

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الذي اصطفاه الله من العرب تكريماً لهم وتخليداً لذكرهم وجعل ذلك مئة عليهم (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (١).

وأنزل عليه قرآناً يتلى إلى قيام الساعة فيه التخليد له ولقومه (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) (٢) وأمرنا بتدبره في آيات عدة حتى نهتدي في مسيرتنا في هذه الحياة (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٣).

وبعد

فإن العلم بأخبار السابقين من فروض الكفاية . فكم وردت آيات تحث المسلمين على السير والنظر ، كما وردت آيات أخرى تأمر بذكر القصص الهادف أو تذكره في بعض الأحيان لأخذ الحيلة والحذر والاعتبار .

وكم ربط القرآن بين بعض المواقف زمن التنزيل وبين مواقف أخرى سبقت عصر التنزيل كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر لأصحابه بعض أخبار السابقين في بعض المواطن للتأسي والاعتبار حيناً وللإقتداء أحياناً أخرى ولعلّه مراد الرسول من حديثه (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) (٤).

ومن الإشارات التي وردت في القرآن الكريم ، حديثه عن الصراع بين الفرس والروم زمن النبوة ، ومحاولة أصحاب الفيل - حلفاء الروم - السيطرة على البيت الحرام ، وهزيمة هؤلاء شر هزيمة مع لفت نظر قريش والمسلمين إلى هذه النعمة كما أشار إلى رحلتي الشتاء والصيف وأثرهما في يسر العيش لأهل مكة .

(١) سورة التوبة ١٣٨

(٢) سورة الزخرف ٤٤

(٣) سورة المائدة ١٥ ، ١٦

(٤) الحديث : صحيح البخارى ك الأنبياء والترمذى ك العلم ومسند أحمد ١١٩/٢ .

وفي عصرنا الحاضر بدأ كثيرون يعيدون النظر في التاريخ القديم في ضوء ما ورثناه من كتب وما اكتشف من آثار وما حل من رموز ، مع تغليب الجانب العقلي على الجانب العاطفي حين الكتابة وتقديم النظرة الشمولية على النظرة الجزئية عن طريق الجمع بين الروايات المتعددة والنظر في الكتابات المتباينة عقدياً أو سياسياً مع التماس الدلائل لترجيح ما يذهبون اليه . حتى بدت كتاباتهم أقرب إلى المعقول منها إلى بعض المنقول وبخاصة إذا تنزهت البحوث عن الأهواء .

وهذا البحث يعالج قضية الصراع الديني المسيحي على الجزيرة العربية قبل الإسلام من كافة الجوانب (السياسية والإقتصادية والاجتماعية) في غير فصل بين الأحداث وأهدافها المتعددة ، بمثل ما أعرض كتاب السيرة عن بعض البواعث والأهداف وفعل بعض السياسيين مثل ذلك وشاركهم في هذا بعض الاقتصاديين ، فكانت الكتابات في بعض الأحيان موجهة بدءاً أو قبل البدء فيها .

كما يشير هذا البحث إلى مكانة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لدى الفرس والروم بخاصة وإن لم يدرك بعض العرب قيمة موقعهم بمثل ما أدرك أولئك تلك القيمة . كما يؤكد تطلع هاتين الدولتين إلى تلك المنطقة عن طريق الاستيلاء أو المعاهدات والأحلاف أو الزج بآخرين لتحقيق مآربهم في تلك الديار لما لموقع هذه الجزيرة من أهمية سياسية وإقتصادية قبل الإسلام .

وقد استعان الروم بالدين لتحقيق مآربهم فأرسلوا من ينشر المسيحية ونصروا الجماعات المسيحية في اليمن ونجران ووقعوا حلفاً لتنصير مكة — لم يكتب له النجاح — فضلاً عن محاولة تنصيرها بقوة السيف إلا أن الله هزم أبرهة فلم تنصر مكة وإن فشلت النصرانية في الأطراف الشمالية والجنوبية في شبه الجزيرة . كما اعتنقها بعض الأفراد في مكة ومنهم من كان نصراني المولد .

وقد اعتمد الروم في نشر المسيحية في شبه الجزيرة على طريقتين :

الأولى : عن طريق الأفراد معتمدين على الحيل وخوارق العادات .

الثانية : الاستعمار مع الإكراه العقيدي ورد كل عادية على النصرانية في الجزيرة العربية .

وقد بدأت حركة التنصير منذ منتصف القرن الرابع الميلادي يدفع الروم إلى ذلك
أمران :

الأول : بعد تبني قسطنطين النصرانية ثم تنصره أذن بها تعميماً ونشراً لما لذلك من
آثار إيجابية في الحروب فضلاً عن المكاسب السياسية والاقتصادية من جراء النشر وقد
تبعه في ذلك خلفاؤه في الحكم .

الثاني : إيمان المسيحيين بعالمية المسيحية كما تصوره نصوص العهد الجديد نظرياً
وعملياً ولم يمض سوى قرنين حتى كادت المسيحية أن تسيطر على كثير من بلدان شبه
الجزيرة وكانت نعمة الله على أهل الجزيرة خاصة وعلى الناس عامة بالإسلام الذي رد
عادية النصرانية عن الجزيرة أولاً ثم أخرج المسيحية من الجزيرة ثانياً فضلاً عن إعلاء
منزلتها ولفت نظر البشرية إليها منذ ظهر وإلى يومنا هذا . حيث فرض شعيرة لا تؤدي
إلا في ديارها وفي بقاع محددة منها كما أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة قبله المسلمين في
مشارك الأرض ومغاربها كعنصر ربط بين المسلمين .

فهل يعتبر المسلمون من أحداث الماضي ويدركون فضل الإسلام فينتفعون به في
الحاضر فالأرض هي الأرض وإن اكتسبت جمالا عن ذي قبل والموقع هو الموقع وإن
اكتسب قيمة عن ذي قبل والصراع هو الصراع وإن اختلفت المسميات عن ذي قبل ،
والله نسأل أن يحفظها في زماننا بما حفظها به في صدر الإسلام . آمين .

عالمية المسيحية كما وردت بالعهد الجديد

وردت نصوص عدة تصرح بعالمية المسيحية زماناً ومكاناً وإنساناً وقد تفاوتت
الدلائل على ذلك . فمنها ما ينسب إلى عمل المسيح عليه السلام ومنها ما ينسب إلى
وصايا المسيح لتلاميذه ومنها ما يتعلق بعدم نسخ شريعة المسيح إلى قيام الساعة ومنها
ما يتعلق بعودة المسيح إلى الأرض مرة ثانية ليحاسب كل من لم يؤمن به . . . الخ
ويمكن بيان ذلك من خلال نصوص العهد الجديد فيما يلي :

أولاً: عمل المسيح ودلالته على العالمية:

كثرت النصوص التي تصرح بأن المسيح كان يتحرك في أمكنة عدة بهدف نشر المسيحية وإذا كان المؤرخون يقصرون حركة المسيح على منطقة فلسطين فإن النصوص قد وردت بصيغة العموم ومنها .

١ - مانسب إلى المسيح أنه كان (يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعها ويكرر في بشارة الملكوت...) (٥)

٢ - «ولما أكمل يسوع أمره لتلاميذه الاثنى عشر انصرف من هناك ليعلم ويكرز في مدنهم ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى» (٦).

ثانياً: وصايا المسيح لتلاميذه بنشر الرسالة لسائر أرجاء الأرض

ويبدوا أن فكرة عالمية المسيحية كانت تراود مدوني الأناجيل ومؤلفي أعمال الرسل حتى إن الانسان ليلحظ كثرة النصوص الدالة على العالمية وتقاربها من حيث اللفظ والمعنى نذكر من هذه النصوص مايلي :

(أ) ورد في متى : أن المسيح كان يرسل رسلا للبلاغ ويرسم لهم المنهج ومن النصوص : «هؤلاء الاثنى عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمشوا وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات . . . وأي مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا وحين تدخلون البيت سلموا عليه . فان كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه . . . ومن لا يقبل ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم . . .» (٧).

(٥) متى ٩/٣٥

(٦) متى ١١/١

(٧) متى ١٠/١٥ .

ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى فإنني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الانسان . . . (٨).

كما يدعى النصارى أن المسيح بعد قيامه من قبره قال لتلاميذه (رفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس . . . (٩).

كما ينسب إليه أنه قال في حق المرأة التي سكبت الطيب على رأسه (ألق أقول لكم حينما يكرز بهذا الإنجيل في العالم يجرب أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها . . . (١٠).

(ب) ورد في مرقس : ما يفيد العموم كذلك ومن النصوص : ما ينسب إلى المسيح بعد قيامته من قبره (ظهر للأحد عشر وهم متكئون وويخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام . وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن . . ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله . وأما هم فخرجوا فكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة . . . (١١).

وينسب إلى المسيح أنه في حال حياته (دعا الاثنى عشر وابتدأ يرسلهم اثنين اثنين وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة . . فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضي كثيرين فشفوهم . . واجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكل شيء كل ما فعلوا وكل ما علموا . . . (١٢).

ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين (١٣).

(ج) ورد في لوقا : ودعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع

(٨) متى ٢٣/١٠

(٩) متى ١٩، ١٨/٢٨

(١٠) متى ١٣/٢٦

(١١) مرقس ١٤/١٦-٢٠

(١٢) مرقس ٦/٧، ١٢، ٣٠

(١٣) مرقس ٣/١٣-١٥

الشياطين وشفاء أمراض وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى . .
فلما خرجوا كانوا يجتازون في كل قرية يبشرون ويشفون في كل موضع ولما رجع
الرسل أخبروه بجميع ما فعلوا فأخذهم وانصرف منفردا إلى موضع خلاء . .
وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضا وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل
مدينة وموضع حيث كان هو مزمعا أن يأتي . . الذي يسمع منكم يسمع مني
والذي يرذل لكم يرذلني . والذي يرذلني يرذل الذي أرسلني فرجع السبعون بفرح
قائلين : (يارب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك . . .) (١٤).

كما نسب إليه أنه بعد قيامته من قبره رأى تلاميذه (وقال لهم هكذا هو مكتوب
وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث . وأن يكرز
باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم وأنتم شهود لذلك .
ها أنا أرسل إليكم موعداً أبي . فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من
الأعالي . .) (١٥).

«كما ورد أن المسيح بعد قيامته من قبره رأى تلاميذه» وقال لهم هكذا هو مكتوب
وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن يكرز باسمه
بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم وأنتم شهود لذلك وها أنا
أرسل إليكم موعداً أبي . . فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من
الأعالي (١٦).

ثالثاً: عدم نسخ الشريعة

يرى النصارى أن المسيح أتى متمماً لرسالة موسى عليه السلام دون أن يغير شيئاً
فيها (ما جئت لأنقص بل لأكمل . . (١٧) وأعلن عن رسالته بقوله (السماء والأرض
تزولان ولكن كلامي لا يزول) (١٨).

(١٤) لوقا ١٠/١٦، ١٧،

(١٥) لوقا ٢٤/٤٦: ٤٩

(١٦) لوقا ٢٤/٤٦: ٤٩

(١٧) متى ٢٧/٤٠

(١٨) متى ٢٤/٣٥ ونفس النص لوقا ٢١/٢٣

رابعاً: عقيدة رجعة المسيح وعالمية المسيحية

وردت نصوص عدة في العهد الجديد تصرح بعودة المسيح إلى الأرض مرة ثانية وهذه النصوص تجمع بين الإجمال والتفصيل . فبينما تصرح بعض النصوص أن المسيح سيأتي في فترة زمنية وجيزة من صلبه . كما يزعم النصارى . وذلك قبل أن يموت بعض مشاهديه صرحت نصوص أخرى بأنه سيأتي لكي يدين الأحياء والأموات لعدم إيمانهم به أو للتقصير في نشر رسالته ويمكن ذكر بعض النصوص الدالة على ذلك فيما يلي :

١ - نصوص مجملة : تبعث الأمل في العودة و الثبات على الرسالة والاشتغال بالنشر ، ومنها :

— «ألق أقول لكم إن من القيام ها هنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا في ملكوته» (١٩) .

— «فإني الحق أقول لكم لا تكلمون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الانسان» (٢٠) .

— «وقال لهم الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» (٢١) .

— عندما سأل بطرس المسيح عن منزلة سمعان (أحد الحواريين) وماذا أعد له؟ (قال له يسوع إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك اتبعني أنت . فزاع هذا القول بين الأخوة أن ذلك التلميذ لا يموت ولكن لم يقل له يسوع إنه لا يموت بل إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك . . .) (٢٢) .

٢ - نصوص مفصلة تبين علة المجيء وحكمته ومنها :

— ينسب إلى المسيح قوله (فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحيثنذ يجازي كل واحد حسب عمله . ألق أقول لكم إن من القيام ههنا

(١٩) متى ٢٨/١٦

(٢٠) متى ٢٣/١٠

(٢١) مرقس ١/٩

(٢٢) يوحنا ٢٠/٢١-٢٣

قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا في ملكوته . . . (٢٣).

— (ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . . .) (٢٤).

— ورد في سفر أعمال الرسل أن المسيح ظل يظهر للتلاميذ أربعين يوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله ، أما المجتمعون فسألوه قائلين يارب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل . فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الأب في سلطانه . لكنكم ستنالون قوة من حلول الروح القدس عليكم وتكونون لي شهودا في كل أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض) (٢٥).

أثر الإيمان بعالمية المسيحية على المسيحيين

لقد كان للنصوص السابقة أثرها على أتباع المسيح عليه السلام . ويبدو أن فكرة عودة المسيح قبل أن يموت بعض التلاميذ الذين عايشوه وقبل أن تكتمل مدن إسرائيل - تبشيريا - لأجل الدينونة كان لها دور فعال في أن ينهض التلاميذ بالدعوة بعد الصلب والقيامة - كما يزعم النصارى - إلى المسيحية .

وقد ذكر مدونوا العهد الجديد أن التلاميذ قد جمعوا أنفسهم ورتبوا شئون الكنيسة في فترة زمنية وجيزة للغاية بهدف التحرك بالمسيحية في بلاد الشام بأثرها . إلا أن دعوتهم قد اصطدمت مرة ثانية باليهود ، كما لاقت مقاومة فعالة من الروم الوثنيين الذين كانوا يخضعون منطقة الشام لنفوذهم في ذلك الحين ، وقد خشى حكام الولايات التابعون للحاكم العام الوثني (قيصر) من انتشار المسيحية . وحتى لا تؤدي إلى حركة تمرد على حق الحاكم (الوثني) من قبل المسيحيين (الموحدين) كانت حركة

(٢٣) متى ٢٨، ٢٧/١٦

(٢٤) متى ٢٣-٣١/٢٥

(٢٥) أعمال ٨-٦/١

الاضطهاد التي بدأت من منتصف القرن الأول للميلاد ولم ترتفع إلا مع مطلع القرن الرابع الميلادي .

ويدعى النصارى أن حركة الاضطهاد تلك كانت بعناية الرب ورعايته ، لأنها أكسبت المسيحيين قوة ولفتت نظر الآخرين إليهم وأعجب كثير من الوثنيين بصلابة اعتقاد النصارى وبخاصة إذا ماخِروا بين الحرق أو التخلي عن الدعوة فكان الحرق أحب إليهم من الدعوة إلى الوثنية . كما أن الإلقاء إلى السباع الجوعى وطلاء الأفراد بالقار وإيقاد النار فيهم في الميادين العامة ومشاهدة حكام الرومان - بالتتابع - لتلك المشاهد كان بمثابة الدعاية إلى المسيحية من طرف خفي .

إلا أنه أمام حركات الاضطهاد تلك قد استطاع بعض المسيحيين أن يُنصّرَ أفراداً من خارج منطقة الشام في ذلك الوقت . فكتاب العهد الجديد يذكر أن أحد الرسل واسمه (فيلبس) قد ظهر ملاك الرب له «قائلاً قم واذهب نحو الجنوب على الطريق المنحدرة من أورشليم إلى غزة التي هي بركة . فقام وذهب وإذا رجل حبشي خصي وزير لكنداكة - ملكة الحبشة - كان على جميع خزائنها . فهذا كان قد جاء إلى أورشليم ليسجد . وكان راجعاً وجالساً على مركبته وهو يقرأ النبي أشعيا - فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة .

فبادر إليه فيلبس . . وفيما هما سائران في الطريق أقبل على ماء . فقال الخصي هو ذا ماء ماذا يمنع أن أعتمد . فقال فيلبس إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز فأجاب وقال أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله . فأمر أن تقف المركبة فنزل كلاهما إلى الماء فيلبس والخصي فعمده ، ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس فلم يبصره الخصي أيضاً . وذهب في طريقه فرحاً وأما فيلبس فوجد في أشدود وبينما هو مجتاز كان يبشر جميع المدن حتى جاء إلى قيصرية^(٢٦) وبذلك بذرت بذور المسيحية في بلاط الحكم في بلاد الحبشة .

كذلك هرب بعض المسيحيين الموحدين إلى الاسكندرية فنشروا المسيحية بها على أساس من التوحيد حتى إن أريوس الاسكندري كان له دور بارز في مجمع نيقية

(٢٦) أعمال الرسل ٨/٢٦ : ٣٩

(٣٢٥م) في الدعوة إلى الإيمان بآله واحد هو الله وإلى الإيمان ببشرية المسيح ونبوته (٢٧) . . مما يدل على سلامة الفكر الديني المسيحي المصري في ذلك الوقت عند كثيرين وإن وجدت آراء مضادة لذلك الرأي أيضا .

الجزيرة العربية والنصرانية

لم تشر كتب التاريخ والسير إلى أن المسيحية قد دخلت شبه الجزيرة العربية في القرون الثلاثة الأولى للميلاد وإنما بدأت حركة التنصير فيها بعد أن أصبحت المسيحية دينار سمية لروما بعد تعميم قسطنطين وتبني الدولة حركة التنصير واتخاذها المسيحية سبيلا لتحقيق الأهداف والمطامع السياسية في بلاد مصر والحبشة وشبه الجزيرة العربية . وقد فشلت فيها المسيحية من طريقين :

الطريق الأول : تبشيري أو تنصيري .

الطريق الثاني : استخدام السيف كوسيلة للتنصير .

وسبل الطريق الأول تجلت في هجرة بعض الرهبان الى شبه الجزيرة العربية وخروج بعض العرب لطلب أحب الأديان إلى الله والتجارة ومن وإلى بلاد الشام والتجارة من وإلى بلاد الحبشة وقيام بعض النصارى بديار العرب لأسباب متعددة . . . الخ .

وسبل الطريق الثاني تجلّى في التماس الأسباب لإكراه الناس على التنصر أو حمل الناس على ترك التهود فضلا عن اتخاذ الدين ستارا لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية وهو ما يتمثل في فتح اليمن وغزو مكة بمساندة قيصر الروم وتنفيذ ملوك الحبشة الذين كانوا خاضعين لإمرة الروم في ذلك الوقت .

ومن البلدان التي دخلتها المسيحية من طريق التبشير - في شبه الجزيرة مايلي :

١ - اليمن في الجنوب : والتي تسربت إليها مبادئ النصرانية على المذهب المنوفيتي (٢٨) من عهد قديم . وربما كان المرسلون السوريون قد قصدوا اليمن في

(٢٧) راجع المجمع بالتفصيل في تاريخ الأقباط زكى شنودة ، تاريخ الكنيسة يوسابيوس القيصري (٢٨) يرى أتباع هذا المذهب أن المسيح عليه السلام ذو طبيعة واحدة لاهوتية تجلت في شخص إنسان .

أزمة مجهولة لدينا فرارا من الاضطهاد . وكانت أول سفارة نصرانية إلى الجنوب تلك التي أوفدها الإمبراطور قسطنطين سنة (٣٥٦م) يرأسها ثيوفيلس إنديسي الأريوسي (على مذهب آريوس) الذي أنكر لاهوت المسيح ، وأهم البواعث الداعية إلى هذه الإرسالية توضحها الحالة السياسية بين الدول آنثذ والمنافسة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية إذ نشطت كل منهما إلى توطيد هيبتها في جنوبي الجزيرة وأفلح ثيوفيلس في إنشاء بيعة في عدن وبيعتين في أرض حمير (٢٩).

٢ - نجران في جنوب الجزيرة العربية دخلتها المسيحية على يد راهب يسمى (عبدالله بن التامر) نسب المؤرخون إليه كثيراً من خوارق العادات كإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى والنجاة من النار وقبوله كل تحد على قتله . . . وقد ذكر بعض كتاب السير أن ابن التامر (كان رجلاً صالحاً من نصارى الشام ويظهر من سياق الأخبار أنه ممن فر بدينه هارباً من أرض الرومان . إما لاضطهادهم النصارى أو لمحاولة مزج المسيحية - من قبل الرومان - بالفكر الوثني (٣٠).

وقيل إن ابن التامر هذا عربي وأنه اعتنق المسيحية على يد راهب يسمى (فيمون) كان يقطن نجران بعد الفرار إليها وقد شاهد ابن التامر منه عجائب وغرائب جعلته يعتنق المسيحية ويظهر بها خوارق العادات حتى آمن بالمسيح على يديه كثيرون (٣١).

وقد دخلت المسيحية نجران في فترة زمنية متأخرة عن دخولها إلى اليمن (فقد كانت مركزاً للنصرانية في جنوب شبه الجزيرة منذ أن تمكن (فيميون) الراهب من نشر المسيحية بها سنة (٥٠٠م) وأسس بها كنيسة على المذهب المونوفيزيتي . . . ولعلها الكنيسة الكبرى التي سهاها العرب (كعبة نجران) وكانت مقامة من آدم من ٣٠٠ جلد وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل . وفيها يقول الأعشى :

وكعبة نجران حتم عليـــــــك حتى تنأخي بأبوابها

(٢٩) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٠/ د قلب حتى وآخرين ط ٣/ ١٩٦١ دار الكشاف للنشر والطباعة

(٣٠) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١١٩ والبدية والنهاية ٢/ ١٦٨ وخاتم النبئين ١/ ٥٧.

(٣١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٢١ - ١٢٢ وسمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٥.

نزور يزيدا وعبدالمسيح وقيساهم خير أربابها
وشاهدنا الورود والياسم — بين والمسمعات بقصاها (٣٢)

ولقد بقيت للنصرانية بنجران بيعة واحدة معروفة إلى الأزمنة المتأخرة . وإلى هؤلاء
النصارى المقيمين بنجران أرسل يعقوب السروجي (ت ٥٢١م) كتابا بالسريانية يحثهم
فيه على الجهاد الروحي ثم جاء الإسلام فأجلى عمر النصارى (٣٣) من نجران .

ويدوا من كتابات المؤرخين أن هذين الشخصين قد لعبا دورا كبيرا في نشر
المسيحية بنجران وأنها تنسب إليهما معا وإن كان لفيميون فضل سبق على ابن التامر في
بعض الروايات التي أثبت أنه سمعه وتأثر به واعتنق دينه ثم اشتغل بنشره . بينما تذكر
بعض الروايات أن ابن التامر أتى من بلاد الشام مباشرة فارا بدينه حتى استوطن
نجران . إلا أن قصة اعتناقه للنصرانية - كما ذكرها المؤرخون العرب - تؤكد كونه
عربيا اعتنق النصرانية بعد أن أعجب بخوارق العادات من قبل فيمimon . ثم باشر
نفس المنهج في الدعوة إلى المسيحية .

٣ - مكة أقام بها بعض النصارى كما تنصر بعض المكين إلا أن هؤلاء لم ينشروا
المسيحية أو يحرصوا على نشرها لأن وضع مكة الديني ما كان ليسمح بانتشار
المسيحية فيها نظرا للعادات والتقاليد الدينية الوثنية وأثرها على الناشئة . كما أن
النصارى يميلون إلى إقامة بيع لهم وهو من الأمور التي تتعارض مع منزلة البيت
الحرام مع أن الرغبة في تنصيرها كانت نصب عين قيصر الروم سواء عن طريق
الغزو أو التحالف كما سيتضح بعد .

ويدو من خلال كتب السيرة والتاريخ أن بعض النصارى قد أقام بها بينما كان
البعض الآخر يزورها ثم يرجع . يقول ابن إسحاق (وكان بمكة رجل قبطي نجار
فتهيا لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها - أي الكعبة - ثم ذكر قصة السفينة التي ألقى بها
البحر حين تهدمت الكعبة وقيام ذلك القبطي بصناعة سقفا (٣٤) .

(٣٢) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ١١٧

(٣٣) تاريخ العرب (مطول) ٨١ / ١

(٣٤) الطبري ٢٨٧ / ٢ والبداية والنهاية ٣٠١ / ٢ تاريخ العرب (مطول) ٣٢٦ / ١

ونقل ابن كثير عن أبي نعيم أنه (كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفرا بالعاصي بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم . وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقي الناس ويقول : إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه . ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته . . (٣٥) .

وكان الرق سبيلاً من السبل التي مكنت بعض النصارى من الإقامة بمكة وبخاصة الأرقاء الذين أتوا من بلاد الروم أو الشام أو الحبشة وقد أكره بعضهم على الوثنية بينما بقى البعض الآخر على المسيحية . . إلا أن المسيحية قد بقيت رهينة لغتها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشاراً ملحوظاً . . وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين كانوا على صلة باللسان الأعجمي (٣٦) . فلم ينشر كتابهم المقدس لأنه لم يكن قد ترجم إلى اللغة العربية وكذلك طقوسهم الدينية لم تؤد في تلك المدينة (٣٧) التي كانت الطقوس فيها قاصرة على الوثنية . وقد كان للأسواق التجارية في مكة دورها كذلك في إتيان كثيرين من النصارى بتجارة إلى تلك الديار وبعضهم اتخذ له بها ضيعة كما أن حركة القرشيين التجارية إلى الشام واليمن قد اطلعتهم كثيراً على النصرانية دون أن يكون لها أثر يذكر . إذا ما استثنينا أفراداً معدودين حرصوا على طلب الدين الحق فانساحوا في الأرض يطلبونه فمنهم من تنصر كورقة بن نوفل (وهو ابن عم خديجة وكان يكتب الكتاب العبراني من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى) (٣٨) .

ويقال إن سبب تنصره - أي ورقة - أنه وزيد بن عمر بن نفيل وعثمان بن الحويرث قد خرجوا إلى الشمال فتنصروا إلا زيदा فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقى على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على

(٣٥) البداية والنهاية ٢ / ٢٧٢

(٣٦) التعميم غير مسلم في الحكم به

(٣٧) في الفكر الدينى الجاهلى د/ محمد الفيومى ص ٨٨

(٣٨) البخارى ١ / ١٨ - ٢٢٣ مسلم ٩٧٨ - ٩٨ ط الشعب

وتشير المصادر العربية إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة نزلوها وأقاموا بها واتخذ بعضهم موالى لأشراف أهل مكة مثل نسطاس مولى سفيان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومي وصهيب الرومي نفسه وكان مولى لعبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب وكان أسيرا في أرض الروم وكان بمكة قبطا من مصر وكان من الروم من اندس بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب . كما توافد على مكة تجار من الروم والفرس ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم (٤٠).

عثمان بن الحويرث والرغبة في تنصير مكة:

خرج عثمان بن الحويرث من مكة حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده فذكر له مكة ورغبة فيها وقال : تكون زيادة على ملكك كما ملك كسرى صنعاء فملكه عليهم وكتب له إليهم . فلما قدم عثمان إليهم قال : إن قيصر من قد علمتم . أمانكم ببلاده وماتصيون من التجارة في كنفه وقد ملكني عليكم وإنما أنا ابن عمكم وإنما أخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والإهاب فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه . وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر . وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوا على ذلك . فلما طافوا عشية بعث الله إليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن عبدالمطلب بن أسد فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف فقال : عباد الله . ملك بتهامة؟ فأنحاشوا إليه انحياش حمر الوحش ثم قالوا : صدقت واللات والعزى ماكان بتهامة ملك قط . فانتقضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر يعلمه ، ثم روى الزبير بسنده أن قيصر حمل عثمان على بغلة عليها سرج الذهب حين ملكه وأعطاه كتابا مختوما بالذهب من أسفله فلما أبت قريش الاستجابة لدعوته خرج إلى قيصر مرة ثانية وكان بعض التجار القرشيين بالشام فسألوا عمرو بن جفنة الغساني - عامل قيصر - أن يفسد على

(٣٩) البداية والنهاية ٢/ ٢٤٣ .

(٤٠) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٣٦٠ / ٣٦١

عثمان عند قيصر . فسأل عمرو في ذلك ترجمان قيصر . فأخبر الترجمان قيصر عن عثمان سوءاً حتى أوقع بينهما إلا أن عثمان تحيل حتى دخل على قيصر وعرفه ما يقتضي أن الترجمان كذب عليه ومالاً أعداءه فكتب قيصر إلى عمرو بن جفنة يأمره أن يجبس لعثمان من أراد حبسه من تجار قريش بالشام ففعل ذلك عمرو إلا أن العرب قد سموا عثمان فمات بالشام (٤١) .

المسيحية في الشمال:

فشّت المسيحية في الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية . ومع أن القبيلتين اللتين وقعتا في شمال الجزيرة كانتا في صراع دائم وحروب مستمرة تتبع أحدهما الدولة الفارسية (الحيرة) بقيادة المناذرة والثانية تتبع الروم (الغساسنة) فقد كان لتنصر الحكام أثره البالغ في نشر المسيحية فقد تنصرت الأسرة المالكة أو أغلبها - في الحيرة - وكانت بالحيرة بيعة أورد ياقوت الكتابة التي كانت على واجهتها ونصها (بنت هذه البيعة هند أمة المسيح وأم عبده) (٤٢) ويذكر المؤرخون أن النعمان كان راغباً في التنصر منذ فترة سابقة على تنصره إلا أنه تخوف من كسرى ملك الفرس أن يعزله كما ينسبون إليه أنه ترهب بعد ذلك وذم الدنيا وزخرفها وقد أنكر بعض المؤرخين اعتناق المنذر للنصرانية وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني فإن الذي لاخلاف عليه أن المسيحيين في حكمه قد تمتعوا بحرية الاعتقاد كما يشاءون، وقد روى المؤرخون المسيحيون أن للراهب (القديس سمعان) دوره في تنصر المنذر وإكرامه للقسيسين والرهبان بخرافات ذكروها في كتبهم . . . (٤٣) .

وأما الغساسنة فقد استقروا في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل العظيم الذي كان يربط مأرب بدمشق وكرت الأعوام فإذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الأرامية لغة لها . إلا أنها لم تهجر لسانها العربي الأصلي . . . وقبل انقضاء القرن الخامس للميلاد غشت أرض

(٤١) البداية والنهاية ٢/ ٢٤٣ ، سمط النجوم العوالي ٢١٣ ، ٢١٤ موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٢٢ .

(٤٢) موسوعة تاريخ الإسلام ١/ ١٧٥ ، تاريخ العرب في الجاهلية ٢٧٩ والعرب قبل الإسلام ٢٦٧ .

(٤٣) تاريخ العرب في الجاهلية ٢٦٢/ ٢٦٤ ، العرب قبل الإسلام ٢٦٨ .

غسان مؤثرات سياسية أدخلتها ضمن دائرة النفوذ الروماني السياسي وقد قصد الروم بذلك أن يجعلوها حاجزا لرد هجمات البدو . ولما كان من مصلحة الغساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها على المذهب المونوفيزيتي وقد استقروا أخيرا في جابية الجولان (٤٤) .

كما وجدت أماكن للهربان في بلاد الشمال للجزيرة العربية بدليل ماورد في كتب السيرة والتاريخ من أحاديث تتعلق بأمر بحيرا الراهب (٤٥) . وميسرة (٤٦) ونسطورا (٤٧) وقصة سلمان الفارسي تشير إلى ذلك وتؤكد (٤٨) .

كما اعتنقت بعض القبائل النصرانية في الشمال (فمن أقدم الحروب البدوية الشهيرة حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب المرتبطتين بصلة القرابة . وقد حدثت في أواخر القرن الخامس الميلادي في الشمال الشرقي من الجزيرة وكانت القبيلتان تدينان بالنصرانية (٤٩) .

النصرانية في يثرب : وجدت قلة قليلة من النصارى استوطنت يثرب وأقامت بها وكان لها نشاط تجاري شبه خاص بها (كما وجد في يثرب سوق يقيمها النصارى من سكانها تسمى (سوق النبط) والمعتقد أن نبط الشام كانوا ينزلون فيها للتجارة بالحبوب (٥٠) .

وقد كانت المسيحية في نجد أكثر انتشارا من اليهودية وكان بنو تغلب وجماعة من بني أسد من نصارى العرب . . ويبدو أن أول من تنصر من ملوك كندة هو معديكرب الكندي الملقب بـ «ذي التاج الأوضح» . . ونعتقد أن ولديه الأسود بن معديكرب بن الحارث وقيس كانا مسيحيين (٥١) .

(٤٤) تاريخ العرب (مطول) ١٠٣/١

(٤٥) الطبرى ٢٧٨-٢٧٩ / ٢ البداية والنهاية ٢٥٤-٢٨٥

(٤٦) الطبرى ٢٨٠ / ٢ وحدائق الأنوار ٣٣/١

(٤٧) الطبرى ٢٨٠-٢٨١ / ٢ والكامل ٢٣٢/١

(٤٨) ابن هشام ٢١٤-٢٢٢ وسبل الهدى والرشاد ١٢٢/١-١٣٠ وحدائق الأنوار ١٢٣/١

(٤٩) تاريخ العرب (مطول) ص ١٢٠/١

(٥٠) تاريخ العرب القديم ٢٤٨

(٥١) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٣٣٤م/٣٣٥ .

استخدام القوة لنشر المسيحية في بلاد العرب

حرص القيصرية على إخضاع شمال وغرب وجنوب الجزيرة العربية لسلطانهم باستخدام السيف ويمكن ذكر موقفين من مواقف الروم العسكرية لتنصير تلك الديار يدفعهم إلى ذلك أهداف دينية وسياسية واقتصادية كما سيتضح فيما يلي .

أولاً: المسيحية في اليمن ودور الروم فيها

تمتعت اليمن في التاريخ القديم بموقع استراتيجي للغاية فلقد كانت همزة الوصل بين العرب والهند وبين العرب والأحباش وبها أقيم سوق تجاري بين العرب والعجم حيث تبادل البضائع وقد أدرك الرومان والفرس قيمة اليمن وقدرها فحرصت كل دولة على أن تكون لها السيادة عليها إلا أن بعد اليمن عن الفرس وضعف الفرس في ذلك الوقت حال دون إخضاع اليمن لنفوذهم بينما رأى الرومان أن في فتح اليمن سياسياً ودينياً كسباً كبيراً لهم فلما يسرت أسباب الغزو لم يترددوا لحظة عن التنفيذ .

أسباب غزو الأحباش لليمن ودور روما فيه :

لم تكن محاولة تنصير اليمن على يد الأحباش هي الأولى بل أنها سبقت بمحاولة قبل ذلك في القرن الرابع الميلادي فقد توالى الوقائع بين الأحباش وحير في أواسط القرن الرابع الميلادي . جرت فيها معارك كانت الحرب فيها سجالاً ومن وافق الحميريين من ملوك الأحباش ملك اسمه (العلي اسكندر) حارب الهدهاد ملك حمير سنة ٣٤٠ م وخلفه العلي عميدة (حكم من سنة ٣٤٠ - ٣٤٨ م) حارب الهدهاد وبلقيس وفتح اليمن سنة ٣٤٥ م بمساعدة قيصر الروم قسطنطيوس رغبة في نشر المسيحية وكانت قد دخلت الحبشة من عهد قريب على يد كاهن رومي اسمه فردمنتوس سلموه أسقفاً عليها سنة ٣٥٤ في أكسوم (٥٢).

وفي أواخر الربع الأول من القرن السادس الميلادي توجه الأحباش مرة ثانية إلى اليمن لفتحها بعد أن حرص ملك اليمن في ذلك الوقت (ذو نواس الحميري) على قتل

كل نصراني في نجران إلا أن يتهود. فأبى القوم اعتناق اليهودية فخذلهم الأخدود وأتى بهم عليه وقد أوقد فيه النار وخيرهم بين التهود والحرق فأبوا التهود فألقوا في الأخدود بسبب تمسكهم بعقيدتهم (وبعد قتل ذى نواس الحميري) هؤلاء. يقال أن واحداً منهم يقال له دوس ذو ثعلبان خرج على فرس له ومضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم وذلك لأنه نصراني على دينهم. ويقال أنه أخذ نسخة من الإنجيل محروقة فأطلعه عليها. فقال له - قيصر - بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك. فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره. فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرباط ومعه في جنده أبرهة الأشرم فركب أرباط البحر حتى نزل بساحة اليمن وانتهى الأمر له بالنصر على بلاد اليمن وتملكها (٥٣).

كما ذكر الطبري رواية ثانية وفيها أن قيصر هو الذي قال للنصراني من نجران (ولكنني سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك منا فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأرك ممن ظلمك واستحل منك ومن أهل دينك ما استحل فكتب معه قيصر إلى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ويأمره بنصره وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه) (٥٤).

يقال أن الرجل الذي خرج من نجران توجه أولاً إلى النجاشي ملك الحبشة. فأعلمه ما ركبوا به وأتاه بالإنجيل قد أحرقت النار بعضه. فقال له الرجال عندي كثير وليس عندي سفن وأنا كاتب إلى قيصر في البعثة إلى بسفن أحمل فيها الرجال فكتب إلى قيصر في ذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق ، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة (٥٥). وهنا يقف العقل متسائلاً : هل ذهب ذلك الرجل إلى قيصر الروم فكتب له إلى نجاشي الحبشة فأرسل النجاشي في طلب سفن من قيصر فأمدّه أو أنها رجلان أحدهما

(٥٣) الطبري ١٢٧/٢ ، البداية والنهاية ١٦٩/٢ والكامل ٤٣١/١ ، ٤٣٢ تاريخ العرب (مطول) ٨٢/١

(٥٤) تاريخ الأمم والملوك ١٢٥/٢ .

(٥٥) تاريخ الأمم والملوك ١٢٤/٢

توجه إلى قيصر والثاني إلى النجاشي أو أن الرجل ذهب أولاً إلى نجاشي الحبشة فأرسل النجاشي رجلاً من قبله إلى قيصر يستأذنه في نصرته ذلك الرجل ويطلب منه المدد فأمدّه . . الله أعلم .

وقد وردت بعض الروايات التي تصرّح بأن اليمن قد أرسل لها ثلاث حملات هزمت الأولى وانتصرت الثانية ولكنها لم تخضع لسلطان النجاشي فأرسل لها حملة تأديبية وقيل أرسل لها حملتان هزمت الأولى وانتصرت الثانية وغزت اليمن^(٥٦) . وبهذا يتضح لنا أن فتح الأحباش لليمن كان سببه دينياً بالدرجة الأولى .

وتشير بعض الروايات العربية إلى أن أسباب الفتح كانت سياسية اقتصادية (فلقد كان لتحويل ملوك أكسوم إلى المسيحية سنة ٣٢٠م أثره الكبير في التقارب مع بيزنطة حامية نصارى الشرق وكان الأحباش يطمعون في السيطرة على اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية دون أن تتعرض للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون وكانت الصلة بين نصارى اليمن - في نجران - ونصارى الحبشة قوية مما جعل الأحباش يمارسون ضغطاً سياسياً على اليمن من طرق النصارى هناك وهذا ما جعل ذا نواس يربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد النفوذ السياسي للأحباش في البلاد . ولذلك عول على تحميل نصارى نجران عن دينهم بالقوة وعندئذ وجد «كالب» ملك الحبشة فرصته المواتية لغزو اليمن بحجة وضع حد لسياسة ذي نواس التعسفية مع النصارى^(٥٧) .

وأما اليونانيون فإنهم ينسبون الفتح إلى أسباب تجارية مالية وذلك أن اليمنيين لما تضعضعت أحوالهم بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من أيديهم كان الرومان قد أخذوا ينشرون نفوذهم في الشرق بواسطة النصرانية وتيسر لتجارهم المرور في بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الأحمر يحملون تجارة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيلة لهم في منعهم فجعلوا يضايقونهم في تسيارهم . وأراد الفرس في أثناء ذلك أن يعرقلوا مساعي الروم أعدائهم القدامى في متاجرهم عن

(٥٦) الطبري ٢/ ١٢٠، ١٢٧، والكمال ١/ ٤٣٢، والبداية والنهاية ٢/ ١٦٩ .

(٥٧) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ١٥٠-١٥١ .

طريق جزيرة العرب فنزل جند منهم بشواطئ خليج العجم من جزيرة العرب . فأرسل القيصر «جوستين» إلى بني حمير أن يردوا الفرس عنهم ويبعث من الجهة الأخرى إلى الأحباش أن يأخذوا بيد تجار الروم في ذلك السبيل . . إلا أن ذلك لم يدم . فعاد العرب إلى معارضة قوافل الروم . . واتفق في أوائل القرن السادس أن الحميريين تعدوا على تجارة الروم في أثناء اجتيازهم اليمن بتجارهم الهندية وقتلوا جماعة منهم فتوقفت حركة التجار فشق ذلك على الأحباش فتجندوا لفتح الطريق وقطعوا البحر الأحمر تحت راية ملكهم «هداد» وحاربوا الحميريين وقتلوا ملكهم «دميانوس» (ذانواس) وجددوا المعاهدة مع قيصر القسطنطينية (جستنيان) على شرط أن يتنصر أهل أكسوم وأرسلوا إلى الأسكندرية وفدأ يطلب قسيساً يعمدهم ويعلمهم فأرسل لهم رجلاً تقياً عاقلاً اسمه «يوحنا» صار بعدئذ أسقفاً على أكسوم .

وبعد ما اقتصر الأحباش من الحميريين انسحبوا إلى بلادهم ، فعاد الحميريون إلى ماكانوا عليه وعادت التجارة إلى الانقطاع . فأعاد «اليسباسي» ملك الحبشة الكرة وفتح بلاد اليمن فتحاً بحملة كبيرة حارب بها الحميريين وغلبهم على بلادهم وولى عليهم أميراً مسيحياً من أمرائه اسمه (أسيافوس) (السيفع) ، وأوعز إليه أن يحمل أهلها على النصرانية استنجاداً بالدين على السياسة واستعان بأسقف اسمه (جريجنتوس) كان خطيباً مفوهاً وعالمًا كبيراً على أن يبذل جهده في هذا السبيل ، وعقد مجلساً جمع فيه بين هذا الأسقف وحبر يهودي اسمه (هربان) وأمرهما بالمناقشة في الدين . فتناقشا وكتب الأسقف بعد ذلك كتاباً نسب فيه الفوز لنفسه . وذكر أعجوبة وقعت من ذلك الأسقف حيث عمى كل الحاضرين من اليهود ، فصلى الأسقف والتمس شفاءهم فعادت إليهم أبصارهم فأفحموا وتنصروا (٥٨) .

وبهذا الغزو سنة ٥٢٥ هـ استقرت المسيحية في اليمن وثبتت أقدامها ولم يتطلع حكامها إلى تنصير اليمن وحدها بل إلى تنصير العرب عن طريق الإكراه . كما تنفس المسيحيون في نجران الصعداء وقضى على التيار الوثني واليهودي حتى سنة ٥٧٥ هـ حين طرد اليهود الأحباش من اليمن مرة ثانية .

(٥٨) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ١٧٢ - ١٧٤ بتصرف .

ثانياً : غزو الأحباش لمكة وأبعاده:

بعد أن استقرت أقدام الحبشة في اليمن وارتدت إليها النصرانية تطلعت أمالهم إلى غزو مكة وإن تعللوا بعلل واهية لتبرير ذلك الغزو . والحقيقة أن إرادة غزو مكة قائمة نصب عين الأحباش - عملاء الرومان - لأبعاد دينية وسياسية واقتصادية وهو ما نوضحه فيما يلي :

أولاً : البعد الديني:

عرفت مكة منذ عهد اسماعيل بأنها أرض البيت الحرام ولا يخف على أحد ما كان للبيت من حرمة عند معظم العرب قبل الإسلام . فضلاً عن وجود معظم ألهتهم به ، وقد أكسب هذا البيت المكيين منزلة كبيرة بين العرب وإن حملهم عبثاً ثقيلاً في السقاية والرفادة إلا أن الهدايا والقرابين التي كانت تقدم للآلهة الموجودة إلى جوار الكعبة كانت تفي بالكثير من حاجة قريش .

ويبدو أن أبرهة قد ضاق ذرعاً بالبيت الحرام فالتمس الأسباب لهدمه باعتباره مثبت الوثنية في وجه المسيحية في قلب وغرب الجزيرة العربية ولذلك سلك السبل التالية :

١ - بناء كنيسة في اليمن تسمى : بالقليس لصرف العرب إليها في حجهم بهدف حملهم على النصرانية وقد بنيت الكنيسة بأموال حبشية وزينت ببعض المواد الخام من قبل بيزنطة في ذلك الوقت كما استمد أبرهة العون من النجاشي وقيصر . ففي مكتوب من أبرهة إلى النجاشي ورد (إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب) (٥٩) .

كما ذكر الطبري : أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء بناء معجباً لم ير مثله بالذهب والأصباغ المعجبة وكتب إلى قيصر يعلمه أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء يبقى أثرها وذكرها وسأله المعونة على ذلك فأعانه بالصناع والفسيفساء والرخام (٦٠) .

(٥٩) الطبري ١٣٠ / ٢ ، والكامل ٤٤٢ / ١ ، والبداية والنهاية ١٧٠ / ٢

(٦٠) تاريخ الأمم والملوك ١٣١ / ٢ - ١٣٢

وفي رواية ثانية : أن أبرهة بعد أن غلب على اليمن ورأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج إلى البيت الحرام فسأل : أين يذهب الناس ؟ فقالوا ما يأتي هاهنا من الوسائل ، قال : والمسيح لأبنين لكم بناءً خيراً منه فبناه . . وأمر الناس فحجوه . فحججه كثير من قبائل العرب سنين ومكث فيه رجال يتعبدون ويتألهون ونسكوا له ، وكان نفيل الخثعمي يؤرض له مايكره ، فلما كان ليلة من الليالي لم ير أحداً يتحرك فقام فجاء بعذرة فلطخ بها قبلته . فأخبر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً قال : إنما فعلت هذا العرب غضباً لبيتهم ، لأنقضنه حجراً حجراً وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ويسأل أن يبعث إليه بفيله «محمود» وكان فيلاً لم ير مثله في الأرض عظماً وجسماً وقوة فبعث به إليه فلما قدم عليه الفيل سار أبرهة بالناس لهدم الكعبة (٦١) .

وفي البداية والنهاية أن عبد المطلب أراد أن يصالح أبرهة على ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك ، وقد عقب ابن كثير على هذا الخبر بقوله : فالله أعلم أكان ذلك أم لا؟ (٦٢) .

٢ - عقد التاج لبعض العرب بعد تنصره وتوجيهه لدعوة العرب إلى النصرانية بناء على رغبة أبرهة ففي تاريخ الأمم والملوك ورد أن بعض العرب أتوا إلى أبرهة يطلبون فضله منهم محمد بن خزاعي بن حزابه الذكواني ثم السلمى في نفر من قومه مع أخ يقال له قيس بن خزاعي . . وفي هذا اللقاء توج أبرهة محمد بن خزاعي وأمره على مضر وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس كنيسة التي بناها فسار محمد بن خزاعي حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء إليه فبعثوا إليه رجلاً من هذيل يقال له عروة بن حياض الملاحى فرماه بسهم فقتله وفر أخوه قيس إلى أبرهة فأخبره فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً وحلف ليغزون بني كنانة وليهدم البيت (٦٣) .

٣ - قيل إن أمراً مباشراً من قبل النجاشي قد أتى إلى أبرهة لهدم الكعبة قال مقاتل : إن

(٦١) تاريخ الأمم والملوك ١٣٧/٢ ، ١٣٨ ، والكامل ٤٤٢/١ والبدية والنهاية ١٧٠/٢

(٦٢) البداية والنهاية ١٧٢/٢

(٦٣) تاريخ الأمم والملوك ١٣١/٢

السبب الذى جر أصحاب الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشى فدنوا من ساحل البحر وثمة بيعة للتصارى تسميها قريش " الهيكل " فنزلوا فأججوا ناراً فاشتروا ، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهاجت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصريخ إلى النجاشى فأسف غضباً للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة أمراً بإياه بذلك (٦٤) .

ويؤكد جرجى زيدان على البعد الدينى لهدم الكعبة رابطاً بين فتح اليمن كنقطة بدء والتوجه إلى مكة كخطوة ثانية فيقول : " لقد دخل الأحباش أعواناً في فتح اليمن ثم مالبثوا أن تحولوا فاتحين ثم نشأ منهم جيل جديد استعمر الأرض واستأثر بها من سنة ٥٢٥ م إلى ٥٧٥ هـ واستثمر الأحباش أرضاً كان أجدادهم قد نزحوا عنها في الأزمان القديمة واستوطنوا الساحل الأفريقى وابتنى أبرهة عامل الدولة الأكسومية كندرائية في صنعاء - عاصمة اليمن اليوم - تعد أفخم كاتدرائية في ذلك العصر . . . وعقد الأحباش النية على تنصير البلاد ومزاحمة مكة الوثنية ومكة يومئذ مزار دينى (الحج) في أمصار الشمال وموارد الحج غنية عن البيان . . . ويخيل لنا أن المشرفين على سياسة البلاد من الأحباش أفلحوا فيما نووه من إنشاء مزار دينى في الجنوب تتوارد إليه القبائل وهو أمر يجلب الضرر إلى معبد الحجاز وحفظت الأحبار ذكرى هذه المنافسة الاقتصادية الدينية فنقلت أن أبرهة كتب إلى النجاشى يقول " إني قد بنيت لك إليها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمته حتى أصرف إليها حج العرب (٦٥) .

ثانياً : البعد السياسى :

يجمع المؤرخون على أن الفرس والروم كانا في صراع دائم وحروب مستمرة وقد جعلنا من شبه الجزيرة العربية مسرحاً ومقياساً لاختبار القوة والنفوذ وبخاصة الأطراف الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية دون منطقة العمق في قلب الجزيرة .

أما الطرف الشمالى فقد خضع الجانب الشرقى منه (مملكة الحيرة) للفرس وخضع

(٦٤) سمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٢

(٦٥) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٣

الطرف الغربى منه (الغساسنة) للروم . وذلك لدرء كل خطر متوقع من سكان الجزيرة على هاتين الدولتين أو إحداهما من ناحية ولتكون كل مملكة مقياساً لقوة الدولة التى تحالفها ضد الأخرى من ناحية ثانية .

وأما الجانب الشرقى لشبه الجزيرة فكان خاضعاً لنفوذ الفرس وسلطانهم دون أن يكون للرومان حظ يذكر فى هذا الجانب حتى اشتهر الخليج العربى الآن فى ذلك الوقت باسم «الخليج الفارسى» وقد ظل ذلك النفوذ ممتداً حتى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم - كما تشير إليه كتب السير حين كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمير البحرين وأمراء عمان داعياً إياهم إلى الإسلام أو دفع الجزية (٦٦) .

ورد فى تاريخ الأمم والملوك : أنه كان بين «كسرى أنوشروان» وبين «مخيطيانوس» ملك الروم مصادعة وهدنة فوقع بين رجل من العرب كان ملكه «مخيطيانوس» على عرب الشام يقال له «خالد بن جبلة» وبين رجل من لخم كان كسرى ملكه على عمان والبحرين واليامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب يقال له «المنذر بن النعمان» قائده فأغار خالد بن جبلة على حيز «المنذر» فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أموالاً من أمواله . فشكا المنذر الأمر إلى كسرى وطلب منه نصرته عن طريق الكتابة إلى قيصر الروم (مخيطيانوس) بحكم الهدنة والعهد بينهما فكتب كسرى كتباً عدة إلى مخيطيانوس ولكنه لم يأبه بها . فغزا كسرى بلاد الشام (وكانت خاضعة للروم) فأخذ مدينة دارا ومدينة الرهاء ومدينة منبج ومدينة قنسرين ومدينة حلب وأنطاكية وقامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى على ماكان فيها من الأموال والعروض ونقل السبى إلى الرومية وأجرى عليهم الأرزاق وعهد بهم إلى رجل نصرانى ليأمنوا به لحال ملته ويسكنوا إليه .

وأما سائر مدن الشام ومصر فإن مخيطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه فى كل سنة على أن لا يغزو بلاده وكتب لكسرى بذلك كتاباً . (٦٧) .

(٦٦) راجع الإصطفاء فى سيرة المصطفى ٣/ ٣٩-٤٠

(٦٧) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ١٤٨-١٥٠ بتصرف

ويؤكد حركة الصراع السياسي بين الفرس والروم على جنوب الجزيرة ما ذكره المؤرخون من أن سيف بن ذى يزن حين نشط لتحرير الجنوب من سلطان المسيحية المتمثل في حكم الأحباش . حرص في البدء على أن يستمد قوة من قيصر في بلاد الروم على حكم الأحباش في اليمن ، فرفض قيصر قائلاً : إنه لا يحسن في ديننا أن يخرج بعضنا على بعض ، فضلاً على أن الروم لم يكونوا بحاجة إلى نفوذ في اليمن لأنه كان قائماً أصلاً عن طريق حكم الأحباش^(٦٨) فصار إلى ملك الحيرة الذي قدمه إلى عاهل الفرس كسرى أنوشروان المقيم ببلادهم في المدائن على أمل أن يقوم هذا بنجدته تحقيقاً لحلم فارس في السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر^(٦٩) .

ولاشك أن محاولة ابن ذى يزن الاستئصال بأعظم قوتين في العالم في هذا الوقت واستجابة الفرس له تعبر عن قيام منافسة بين الروم والفرس للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الهند . وقصة لجوء يوسف بن ذى يزن إلى كسرى وحثه إياه على فتح اليمن وتحريرها من الأحباش قصة لا تبدو غير معقولة فقد كان من الطبيعي أن تنشأ في اليمن حركات قومية مناهضة للأحباش . . . وقد كان كسرى يعرف عظم ثروات اليمن وكان يتلهف للسيطرة عليها مادام في ذلك وسيلة يتوصل بها للقضاء على نفوذ الروم السياسي والاقتصادي في اليمن . كذلك تستبعد ما زعموه من أن الجيش الذي سيره لتحرير اليمن كان جيشاً من السجناء ، فليس طبعياً أن يستهين كسرى بمثل هذا الفتح إذا كان يحرص كل الحرص على نجاح هذه الحملة^(٧٠) .

وكسب الفرس كثيراً من ضم اليمن إلى حوزتهم ، فقد أصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر كما سيطروا كذلك على الطريق البري أو طريق الحجاز ولم يلبث الفرس أن توجوا جهودهم بفتح الشام ومصر سنة ٦١٤ م وأدرك هرقل أن الفرس أصبحوا أصحاب السلطان الفعلي على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر وأنهم خنقوا دولة أكسوم الحبشية حليفة الروم^(٧١) .

(٦٨) الطبرى ١٤٨/٢ ، الكامل ٤٤٧/١ ، ٤٥١ ، البداية والنهاية ٢٧٧/٢

(٦٩) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ١٧٢ .

(٧٠) المرجع السابق ١٧٤

(٧١) المرجع السابق ١٧٧

وأما دولة أكسوم الحبشية فكانت وكيلاً غير شرعي تنظر في مصالح بيزنطة وكان نصارى العرب يوالون البيزنطيين ويتطلعون إلى الحماية والرعاية من القسطنطينية كما كان اليهود والوثنيون والعرب يلوذون بالفرس يطلبون عطف المدائن واستغاث " سيف " بملك الفرس فأغاثه وأرسل لغوثه ٨٠٠ محارب سنة ٥٧٥م فدحر الأحباش وأخرجهم من اليمن وكفى البلاد شر حكامها الإفريقيين ، ونشأ على أنقاض ذلك حكومة مزدوجة وكان الوالى الأسمى فيها (سيف بن ذى يزن) وكان الفرس يتدخلون في شئون اليمن حتى أخضعوها لسلطانهم إلى أن كان دخول الإسلام فيها (٧٢).

وهناك من يعتقد بأن الهدف من حملة أبرهة كان هدفاً سياسياً لأن البيزنطيين كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت نفوذهم ضد الفرس ويستند هؤلاء على ما أورده " بروكويوس " إذ يقول " أما فيما يختص بحمير فقد كان من المرغوب فيه أن يقيموا قيساً زعيمه على معبد ويسيروا جيشاً منهم ومن المعربين لغزو فارس ، ولم يكن أبرهة يزهّد في استغلال مثل هذه الفرصة لمد نفوذه على بلاد العرب (٧٣).

وقد ذكر الدكتور جواد على بعض الروايات التي صرحت برغبة الأحباش في غزو أماكن نفوذ الفرس في الجزيرة بإيعاز من الروم ، ثم عقب عليها بقوله : فهل أراد بذلك سير أبرهة لفتح مكة وبقيّة مدن الحجاز ليهاجم من هناك العراق وحدود امبراطورية الفرس وليمهد بذلك الطريق إلى الاتصال بالروم ، أو إنه عنى مهاجمة الفرس من مواضع أخرى تقع في العربية الجنوبية أو سواحل الخليج (٧٤).

ثالثاً : البعد الاقتصادي:

لقد كان الطريق التجاري في غرب شبه الجزيرة العربية ذا منزلة كبيرة في ذلك الوقت بما يعدل قيمة قناة السويس في العصر الحاضر ، حيث التوجه من اليمن إلى الشام والعكس . على الجانب الشرقي للبحر الأحمر وهناك فرع للطريق من مكة يتجه

(٧٢) تاريخ العرب (مطول) ٨٦/١ ، ٨٧ .

(٧٣) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ١٧٠ .

(٧٤) المفصل في تاريخ العرب ٣/١٩٧ .

ناحية الشرق يصل إلى الخليج الفارسي في ذلك الوقت ثم يتفرع إلى فرعين :
أحدهما : شمالاً حتى بلاد العراق ، ثانيهما : جنوباً حتى بلاد البحرين .

وقد أغنى هذا الطريق عن استخدام البحر الأحمر والخليج الفارسي لأسباب ذكرها المؤرخون منها (أن السفن في ذلك العهد لم تكن تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التي تجعل الملاحة خطراً عليها كما أن شواطئه قليلة الموانئ وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التي كان اقتراب السفن منها أمراً محفوفاً بالمخاطر (٧٥) .

ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسي بسبب وجود الفرس على ساحله الشمالى وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هى الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال والجنوب ثم بين الشرق والغرب (٧٦) .

وقد ذكر أحد المؤرخين أن من أسباب نصره كسرى لسيف قوله (نظراً للعداء الفارسي البيزنطى ولكون الاحتلال الحبشى لليمن وما يكون وراءه من نفوذ بيزنطى يؤثر تأثيراً سيئاً على الاقتصاد الفارسي من حيث تحويل تجارة الشرق الأقصى إلى أيدي البيزنطيين وحرمان الفرس من الأرباح التي تأتيهم من تجارة التوابل عبر الخليج العربى الفارسي في ذلك الوقت - إلى المناطق الشمالية ، لوجود منافسين أقوياء إلى جانبهم هذا بالإضافة إلى ما ينجم عن احتلال اليمن من تزايد في السيطرة السياسية البيزنطية ومن اختلال في توازن القوى السياسية بين الدولتين العدوتين (٧٧) .

لقد كان لمكة أهمية تجارية عظيمة فهى نقطة التقاء لطرق عدة تأتيها من جميع الجهات من اليمن ومن الخليج العربى ومن الحبشة عن طريق البحر الأحمر ومن مصر وفلسطين وسورية وليس المعلوم على وجه التحقيق متى كان منشؤها . إنما الراجح أن موقعها الهام على طريق القوافل التجارية قد جعل منها من غابر الزمن محطة يقيم فيها

(٧٥) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ١/ ١٥٣ نقلاً عن عصور الازدهار في الجزيرة العربية د/ نقولا زيادة .

(٧٦) المرجع السابق ج١ / ١٥٣ ونسبة إلى : حياة محمد ص ٧٧ د/ محمد حسين هيكل ، وقريب منه ماورد بصفحة ٨٩ الطبعة السادسة عشر ط ، دار المعارف - مصر .

(٧٧) تاريخ العرب القديم ٨٦

رجال القوافل أياماً بسبب إمكان العثور على ماء للشرب فيها . الأمر الذى دعا إلى ارتفاع شأنها وإلى تحويلها من محطة تجارية إلى مدينة زاهرة . . لقد تحولت طرق التجارة من جديد إلى البحر الأحمر منذ استولى الرومان على سورية ومصر قبيل مستهل النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلادى وسيطروا على تجارة هذا البحر من خليجى العقبة والسويس . بعد أن قضوا على دولة الأنباط وجعلوا محطتها التجارية تحت سيطرتهم وعلى الدولة التدمرية إذ دمروها ففقدوا بذلك على حياتها التجارية ، عندئذ بدأت سفن الرومان التجارية تمخر عباب البحر الأحمر فى طريقها إلى الشرق الأقصى ، وتمز بالثغور الحجازية فى ذهابها وإيابها ولم تفقد المحطات التجارية البرية ومنها مكة أهميتها . بل زاد نشاطها بعد أن انحطت دول الجنوب العربى وتحلت عن دورها التجارى المرموق فاستلمت مكة وأهلها مقاليد التجارة فى شبه الجزيرة العربية لا سيما وأن العلاقات التجارية بين قريش وبين الأحباش الذين احتلوا اليمن وبينهم وبين البيزنطيين الذين حرصوهم على ذلك كانت حسنة (٧٨) .

إن الازدهار التجارى الذى تصيبه شبه جزيرة العرب بعامته ومكة بخاصة كان مرتبناً بطريق الهند فبحسب أن يمر الطريق إلى الهند من الشمال عبر وادى الرافدين - فارس - أفغانستان أو من الجنوب والغرب عبر شبه جزيرة العرب والخليج العربى - الفارسى فى ذلك الوقت - واليمن يكون العرب إما فقراء أو أغنياء (٧٩) .

والواقع أن مكة قد استفادت من وقوعها على طريق الهند وذلك أن القوافل التجارية الآتية من اليمن ببضائع الهند والذاهبة إليها كانت تمر فيها بوصفها محطة تجارية لا بد لها من النزول فيها كما أعان على ازدهار مكة وارتقائها من محطة تجارية إلى مدينة عامرة تدهور العلاقات بين حكام فارس وحكام بلاد الشام البيزنطيين ونشوب حروب طويلة بين الطرفين فى القرنين اللذين سبقا ظهور الإسلام مما أدى إلى تعطيل التجارة بين بلاد الشام والهند عبر إيران وأفغانستان وإلى انتقال النشاط التجارى إلى شبه جزيرة العرب وبخاصة ساحلها الغربى على البحر الأحمر فاتجه المكيون إلى التجارة

(٧٨) تاريخ العرب القديم ١٦٨ ، وقد سمي الخليج الفارسى فى ذلك الوقت بـ " الخليج العربى " سهواً

(٧٩) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٢٣٨ نقلاً عن دير منغم ٢٧

وانصرفوا إليها بكليتهم لاسيما وأن سقوط اليمن في يد الأحباش قد أدى إلى خروج مقاليد التجارة من أيدي اليمنيين وانتقالها بطبيعة الحال إلى أيدي المكين . . . الذين أسهموا في التجارة العالمية فتاجروا مع مصر والحبشة عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء الشعبية الذي كان ميناء لمكة في العهد الجاهلي (٨٠).

وقد اعتمد الروم البيزنطيون على تجارة مكة في كثير من شئونهم ووسائل ترفهم لاسيما الحصول على الأقمشة الحريرية المزركشة الموشاة ولم يكن بوسعهم الاستغناء عما يأتونهم به . وقد ذكر بعض مؤرخي العرب بأنه كان للبيزنطيين بيوت تجارية في مكة يستخدمونها للشئون التجارية والتجسس على أحوال العرب (٨١).

ولقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن فاستغلوا تبعية شمال الحجاز للأقباط وسيروا حملتهم بقيادة «اليوس جالوس» استعانوا فيها بفرقة من الأقباط عدتها ألف مقاتل نبطى كما استعانوا بوزير الأنباط ويدعى (سليوس) أو (صالح) ليكون مرشداً لهم ودليلاً عبر مفاوز الحجاز ثم تجددت منذ أيام (جستينيان) فكرة السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند ويذكر (بروكيوس) أن ملك الحبشة المسيحي كان يسعى لفرض حكم مسيحي على بلاد حمير الوثنية وتدخل جستينيان بقصد توحيد جميع الأقطار المطلة على البحر الأحمر ضد فارس للسيطرة بمساعدتهم على تحرير العين ولكن فارس التي كنت تسيطر على وادي الرافدين ومصبها ظلت تحتفظ بمفتاح المواصلات في آسيا الوسطى على الرغم من المحاولات الفاشلة التي قام بها البيزنطيون لتحطيم الستار الحديدي . ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم في السيطرة على الطريق البحري عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأحباش الذين استولوا على اليمن فإنهم أخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأحباش كذلك . وفشلت حملة أبرهة فشلاً ذريعاً كما فشلت حملة «إيليوس جالوس» قبل ذلك بقرون (٨٢).

(٨٠) تاريخ العرب القديم ٢٣٨ نقلاً عن جواد علي ٢٠٣/٤

(٨١) المرجع السابق ٢٤١ ونسبة إلى الأمازي ١٩٩/٣

(٨٢) تاريخ العربي في عصر الجاهلية ٣٤٢/٣٤٣

وكانت قريش تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف ومن بين الضرائب التي كانت تفرضها ضريبة العشور فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم . وتشير المصادر العربية إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة نزلوها وأقاموا فيها واتخذ بعضهم موالى لأشراف مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومى وصهيب الرومى نفسه وكان مولى لعبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب . . وكان بمكة قبطاً من مصر ، فقد ذكروا أنه كان يقيم فيها نجار قبطى ، وكان من الروم من أندس بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب كما توافد على مكة تجار من الروم والفرس ساكنوا المكين وتحالفوا مع أثريائهم ومنهم من أقام بمكة نظير دفع جزية لحمايته وحفظ أمواله وتجارته ، وكان تجار بلاد الشام يجلبون القمح والزيت والخنمور ومصنوعات الشام إلى مكة (٨٣) .

ويبدو أن اتصال تجار مكة بالحبشة والصومال كان يتم عن طريق آخر غير طريق اليمن البرى هو طريق البحر فقد كان لمكة ميناء على البحر الأحمر يسمى الشعبية ، فكان تجار مكة يستخدمون هذا الميناء والموانئ القريبة منه للاتصال بالحبشة والصومال ومصر أيضاً . . ومن المعروف أن قريشاً لم تكن تملك سفناً فى البحر الأحمر والأرجح أنهم استخدموا سفناً كانت تعمل لحسابهم (٨٤) .

أبرهة يسير لهدم الكعبة

تبين لنا مما سبق منزلة مكة من الناحية السياسية والاقتصادية بالنسبة للروم والأحباش والفرس كذلك . إلا أن نأى مكة عن بلاد فارس وقربها من الحبشة فى اليمن ومقابلتها لمصر - الخاضعة لسلطان الروم - على شواطئ البحر الأحمر وإرادة الروم السيطرة على البحر الأحمر بشاطئيه فى مقابل سيطرة الفرس على الخليج الفارسي بشاطئيه كل ذلك هو الذي دفع الأحباش إلى محاولة الاستيلاء على مكة مدفوعين - قبل ذلك كله - بالدافع الدينى .

(٨٣) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣٦٠

(٨٤) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣٦٤ نقلاً عن أحمد إبراهيم الشريف مكة والمدينة ص ٢١ .

ويبدو من الجيش الذي ساقه أبرهة وطلبه المدد من النجاشي وتخصيص الفيلة بالذكر على وجه الخصوص أن الأمر قد أخذ مأخذ الجد من قبل أبرهة حتى يحقق الأمل الذي أعلن عنه سابقاً للنجاشي «إني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ولست بمتمته حتى أصرف إليها حج العرب».

وأثناء توجه أبرهة إلى مكة خرجت بعض القبائل لحربه حتى تصده عن البيت إلا أن قوة جيش أبرهة قد فتكت بها ومكنت أبرهة من الاستيلاء على كثير من أمتعتها (٨٥).

ويقال أن أبرهة قد تخوف من الاستيلاء على البيت عنوة لعلمه بمنزلة هذا البيت عند الله فحرص على أن يكون الاستيلاء سلباً ولذلك أرسل إلى حمة هذا البيت كي يسلموه دون قتال ، وكانت المفاجأة أن عبد المطلب قد عدل عن إجابة أبرهة بشأن البيت الحرام إلى طلبه منه أن يرد عليه إبله التي استاقها خيله حين السير إلى مكة مما أثار استغراب أبرهة حتى إنه أنكر على عبد المطلب ذلك قائلاً لترجمانه قل له كنت أعجبته حين رأيته ثم زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائة بغير أصبتها لك وترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه . فرد عليه عبد المطلب قائلاً أنا رب الإبل ولليبت رب يحمي (٨٦).

يقول الشيخ أبو زهرة : كان هذا الكلام السهل اللين يخفى في نفسه إنذاراً شديداً لرجل كتابي نصراني ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه إلى أنه لا يحارب أحداً من أهل مكة وإنما يحارب الله ويهدم بيتاً بناه بأمر الله إبراهيم - عليه السلام - . . . ففي هذا الكلام تهديد بحرب لم يألفها ولم يعرفها وهي حرب الله وحرب أبي الأنبياء (٨٧).

ويبدو على هذه الرواية سمة الوضع والتكلف لإعلاء شأن مكة والحرم عند أبرهة مع أن مقدمات الإعداد والاستعداد لا تدل على أدنى قدسية لهذا البيت في نظر ذلك النصراني . فلقد أتى بالخيول والبغال يمتطيها الجنود باعتبارها من وسائل الحرب

(٨٥) الكامل ١/ ٤٤٢ والبدية والنهاية ٢/ ١٧٠

(٨٦) الكامل ١/ ٤٤٤ والبدية والنهاية ٢/ ١٧١

(٨٧) خاتم النبیین لأبي زهرة ١/ ١٣١

وأتى بالفيلة لهدم ذات الحرم كما أن الرواية التي ذكرها ابن كثير ومفادها أن عبد المطلب أراد أن يصلح أبرهة على ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى (٨٨) تبطل كون الرغبة إلى السلم أقرب منها إلى الحرب.

نهاية الحملة وأثرها على النصارى في غرب الجزيرة

لقد شاءت الأقدار أن يكون نصر الله لأهل مكة على الأحباش على غير ماجرت به العادة عند العرب بمثل ما كانت الفيلة في المعركة تمثل سلاحاً لم يعرفه العرب في ذلك الوقت ولا قبل لهم به . وقد صور القرآن الواقعة بدءاً ونهايةً أبلغ تصوير من باب إظهار المنة على الرسول ﷺ وعلى العرب قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ۚ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ » وهنا تذهب النفس كل مذهب في المقارنة بين عظم الفيل وزناً وقوةً ورهبةً وبين ضالة الطير وضعفه . . إلخ إنها قدرة الله .

وبهذا يتبين لنا أن السلاح الذي هزم به أصحاب الفيل كان خارجاً عن دائرة المألوف وأن الهلاك كان بصورة غير معهودة . سواء أكان الهلاك بالجدرى (٨٩) أم بذات الحجارة وما استودع الله فيها من قدرة على إهلاك من أصابته .

ولكن الذي لا خلاف عليه أن أهل مكة لم يستخدموا السيف في هذه الغزوة ولم يواجهوا الأحباش لضعف قوتهم وقلة ذات يدهم ولتقدم أسلحة الأحباش على أسلحتهم مع إيمانهم بأن الحرب حرب صليبية ضد الله وضد بيته بدليل ما أنشده أبو طالب ، ومن قصيدته :

لا غلبـنـ صليبهـم ومحالمهم أبــــــــــــــــــــداً محالك
وانصر على آل الصليــــــــــــــــــــب وعابديه اليوم ألك (٩٠) .

(٨٨) البداية والنهاية ١٧٢/٢

(٨٩) سمط النجوم العوالي ٢٣٢/١ وتاريخ العرب في عصر الجاهلية ١٦٨ وابن هشام ٥٦/١ وابن سعد ١٣٢٢/١

(٩٠) سمط النجوم العوالي ٢٣٠/١ وتاريخ الطبري ١٣٥/٢ والبدية والنهاية ١٧٣/٢ .

أثر الهزيمة في مكة (للأحباش) على النصرانية :

١ - كانت نتائج تلك الهزيمة إيجابية لأهل مكة بكل ما تحمله الكلمة من معنى حيث عظم شأن الحرم وشأن قريش وشأن عبد المطلب وشأن مكة ، وفشا الأمر عند العرب أجمع فازدادوا تقديراً وتعظيماً لحرمة البيت .

٢ - بقى النصراني في مكة على نصرانيته والوثني على وثنيته والحنيفي على حنيفيته ، حيث انتفى عامل الإكراه ، ولم يستطع الأحباش صرف العرب للحج إلى القليس باليمن .

٣ - ضعف شأن الأحباش بهذه الهزيمة وسقطت هيبتهم وازدري الناس بهم وخاصة بعد وفاة أبرهة الأشرم وتولى يكسوم ابنه .

٤ - تولدت روح التحرير لدى أهل اليمن وتجراًوا على طرد الأحباش بعد حكم دام نصف قرن تقريباً . ففي سنة ٥٧٥ م - أي بعد هزيمة الأحباش في مكة بأربعة أعوام ، استطاع سيف بن ذى يزن أن يلتمس الأسباب لطرد الحبشة من اليمن فلما يسرت له الأسباب حاربهم وانتصر عليهم وقتل معظمهم واستبقى القليل منهم خدماً وعبيداً إلا أنهم غدروا به في رحلة كان يقوم بها وقتلوه .

٥ - علم الروم بأمر الغزو ونتائجه ، وقد ترك العلم بهذا النصر في أنفس المستشارين لحكام النصراني أثرأ كبيراً في الخوف من حرمة هذا البيت بعد أن تأكد لهم أن تبع الحميري مالك اليمن - حين أراد غزوه وهدمه صرفه الله عنه حيث أظلمت الدنيا عليه فيه ثلاثة أيام لم ير فيها شيئاً فظهرت حرمة البيت له فكساه وتركه (٩١) . كما أن الأحباش حين أرادوه بسوء كانت عاقبتهم أسوأ من ذى قبل ، ولذلك عندما رجع عثمان بن الحويرث إلى قيصر يشكو إليه ما وجده من أهل مكة وامتناعهم عن قبول النصرانية ، كتب قيصر له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوه من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل . فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه (٩٢) .

(٩١) البداية والنهاية ٢ / ١٦٤

(٩٢) البداية والنهاية ٢ / ٢٤٣

الآثار

استطاع النصارى أن يدخلوا المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية إلا أن وجودها كان متفاوت الآثار ، فبينما دانت بعض البلدان في الشمال بالنصرانية كالغساسنة والمناذرة والرها ونصيبين وإربل وسلوقية وجدنا من شرق الجزيرة من يدين بها كالبحرين وعمان ومن جنوبها اليمن ونجران وعدن .

كما وجدنا بعض القبائل كذلك مثل تغلب وبطون بكر بن وائل وطيماء ودومة الجندل تعتنقها ومن مشاهير العرب من دان بها وقد أشار (لويس شيخو) في موسوعته (شعراء النصرانية في الجاهلية والإسلام) إليهم ، وإن وجه بعض النقد إلى ما كتبه هذا المستشرق وينبغي أن لا ننسى أن المسيحية كانت تحل محل بعض الديانات وأحياناً يتم الجمع بين المسيحية والوثنية لدى الشخص الواحد . ويكفى أنها عرفت في صدارة المعتقدات التي وجدت في شبه الجزيرة كالوثنية واليهودية وعبادة الكواكب والملائكة وبعض الظواهر الطبيعية حتى كان الإسلام الذي طهر شبه الجزيرة من كافة المعتقدات إلا التوحيد الخالص لله رب العالمين .

أهم نتائج البحث

- ١ - لشبه الجزيرة أهمية بالغة عبر التاريخ من ناحية الموقع جعلت القوتين المعاصرتين لها قبل الإسلام تتطلعان إلى السيطرة عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.
- ٢ - يؤمن النصارى بعالمية المسيحية وما لم تتعامل معهم على هذا الأساس فسوف نخسر الجولات الدائرة معهم.
- ٣ - نمت إرادة إخضاع شبه الجزيرة للدولة الرومانية المسيحية في القرن السادس على وجه الخصوص وسلكوا من أجل ذلك سبلاً عدة منها (الغزو - الأحلاف - المنصرين).
- ٤ - كانت الرغبة في تطويق شاطئ البحر الأحمر نصب عين الدولة الرومانية في هذه الفترة كرد فعل لتطويق الفرس لشاطئ الخليج العربي (الفارسي في ذلك الوقت).
- ٥ - كانت النصرانية في شبه الجزيرة خاضعة من طرف خفى - للنصرانية في بيزنطة . فضلاً عن حماية قيصر الروم للمسيحية في شبه الجزيرة وبخاصة منطقتي الشمال والجنوب .
- ٦ - لم يستخدم الرومان فرداً من بلادهم في الحروب التي تمت في اليمن أو غزو مكة وإنما استعانوا بالأحباش ومن قبل من العرب واكتفوا بالدعم المادي فقط .
- ٧ - لم يقبل الرومان نصر الوثنيين على المسيحيين في تلك الديار بمثل ما فعل قيصر مع سيف بن ذي يزن قائلاً له : ليس حسناً في ديننا أن يخرج بعضنا على بعض .
- ٨ - فشلت النصرانية في كثير من مناطق شبه الجزيرة وبخاصة الشمال والجنوب والشرق .
- ٩ - لمكة منزلتها الدينية عند الله وعند الناس (العرب قبل الإسلام) . وقد كان لهزيمة أبرهة كبير الأثر في تحرك أهل اليمن لطرد الأحباش من بلادهم .
- ١٠ - كل فصل في معالجة القضايا السابقة يجعلها قاصرة ، فلا إمكانية لفصل الباعث السياسي والاقتصادي عن الباعث الديني حين الحديث عن فتح اليمن (غزوها) ، أو إرادة (غزو مكة) .
- ١١ - الإسلام هو الذي وحد سكان شبه الجزيرة بعد فرقة عبر تاريخها وحررها من النصرانية ورد عادية الفرس فضلاً عن إكسابها مكانة فوق مكانتها وقدرها فوق قدرها .

أهم المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

١ - ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الكامل في التاريخ ط دار صادر بيروت ١٩٧٩ م .

٢ - ابن الربيع الشيباني عبد الرحمن بن علي بن محمد حقائق الأنوار في سيرة النبي المختار ط إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر ١٩٨٢ م .

٣ - ابن جرير الطبري محمد بن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك - ط دار المعارف - مصر ١٩٦٠ م .

٤ - ابن كثير أبو الفدا عماد الدين بن كثير البداية والنهاية - ط مكتبة المعارف - بيروت ط ٤ سنة ١٩٨١ م .

٥ - ابن هشام السيرة النبوية ط ٣ دار إحياء التراث العربي بيروت - ١٩٧١ تحقيق الإيباري .

٦ - أبو زهرة الإمام محمد أبو زهرة خاتم النبيين - مؤسسة دار العلوم - لحساب إدارة إحياء التراث الإسلامي قطر .

٧ - أحمد شلبي (دكتور) موسوعة التاريخ الإسلامي - مكتبة النهضة المصرية ط ١١ سنة ١٩٨٤ م .

٨ - توفيق برو (دكتور) تاريخ العرب القديم ط - دار الفكر - دمشق ط ١٠ سنة ١٩٨٤ م .

٩ - جرجي زيدان العرب قبل الإسلام ط دار مكتبة الحياة - بيروت .

١٠ - سيد عبد العزيز سالم (دكتور) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ط دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٧١ .

- ١١ - عبد الملك بن حسين بن عبد الله سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى
- ط السلفية مصر سنة ١٣٧٩هـ
- ١٢ - فيليب حتى تاريخ العرب (مطول) ط ٣ سنة ١٩٦١م . دار الكشاف للنشر
والطباعة والتوزيع .
- ١٣ - محمد الفيومى (دكتور) فى الفكر الدينى الجاهلى - ط . دار القلم - الكويت ط ٢
سنة ١٩٨٠م .
- ١٤ - محمد نبهان الخباز الاصطفاء فى سيرة المصطفى - إدارة إحياء التراث الإسلامى
- قطر سنة ١٩٨٦م .
- ١٥ - محمد بن يوسف الصالحى الشامى سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد -
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر ١٩٨٤ .